الفصل السادس
هل السومريون أوائل الأنبياء؟
أو مَنْ اخترع آلهة سومر؟

كان ظهور وازدهار حضارة السومريين كنتيجة لتطور ونضج طويلين في بيئتها، وكانت رافدية الأصل والجوهر، ولهذا فقد تمكنت من البقاء حتى اختفاء الشعب السومري سياسياً نحو العام 2000 ق.م، وتبناها جميع الشعوب الذين غزوا واحتلوا وحكموا بلاد الرافدين. لقد تطورت حضارة السومريين مع تطور الإنسان ومع الزمن، واستطاعت، الاحتفاظ بخصائصها الأساسية، فكيفما نظرنا إلى حضارة بابل وآشور التي خلفتها فإننا نجدها ترتكز على هيكل سومري مبدئي، وأصلي.

1 . أصل الدين وأهميته:

إن الدين هو المثل الأكثر تأثيراً ووضوحاً. إذ يبدو أن ديانة الأكاديين أول أسلاف تاريخيين للعرب قد ذابت في محيط جارتها السومرية منذ بداية العصور التاريخية، بسبب كونها أبسط منها بكثير وأقل تنظيماً. كما لا يوجد سوى بضع عشرة آلهة من أصل أكادي في المجمع الرافدي خلال الألف الثالث بينما تعد آلهة سومر بضع مئات، لم تجد سوى القبول والاحترام لدى جميع الشعوب وعندما قدم إلى الرافدين أفواج أخرى من الأموريين أحفاد الأكاديين في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني فإن إلههم القبلي أمورو Amurru قد بقي إلهاً متواضعاً وحل مكانه إله سومري صغير، رفعه البابليون إلى مستوى الأمة تحت اسم مردوك Marduk. وعندما سيأتي الغزاة الآريونالكاشيون في وقت متأخر، فإنهم سيدخلون ألهتهم الآرية، التي لم تكن سوى معبودات متواضعة انهارت بسرعة أمام المجمع الديني السومري الأصل. وكان آشور Ashur الإله القومي الآشوري من أصل محلي شمالي، وهو إله الهضبة التي ترتفع فوقها مدينة آشور. وقد زَوَّجه الآشوريون بالإلهة نين ليل Ninlil زوجة كبير آله

سومر انليل. وغنى الكهان مدائح آشور.ولم يجد كتاب آشوربانيبال عنواناً أجمل من «أنليل الذي لا يشق له غبار بين الآلهة». وهكذا فقد عبدت آلهة سومر خلال ثلاثة آلاف عام في بلاد الرافدين، وذهب بعضهم للقول، مع قليل من المبالغة، إنه لم يكن هناك ديانة بابلية، وإن بلاد الرافدين لم تعرف سوى الديانة السومرية والعكس مقبول أن ديانة بابل هي أصل جميع الديانات.

2 . الملوك نواب الإله:

لقد جعل السومريون من فكرة اختراعهم لآلهتهم مصدر نفوذ قوي أثر في حياة الرافديين العامة والخاصة، رغم تأثرهم بفكرة التدين لدى جيرانهم الآكاديين ولقد ظهر ذلك براقاً من خلال عدد الصروح والأعمال الفنية، وظهرت فكرة ديانتهم من خلال تكوينها جوهر أدبهم الأسطوري والملحمي الجامع للأمثال والروائع. وكان لهذا الأدب الديني حيوية سامية تنبع من قلوب مفعمة بتلك الروح الإيمانية، ويشهد على هذا ترانيم جميلة وصلوات تأخذ بمجامع القلوب. يرافق ذلك ممارسات سحرية تشكل مضمون دين شعبي يشارك فيه الملوك وأعيان ذلك العالم كما أنه يشكل أساس المؤسسات السياسية، وكان لتبلور الحياة الدينية السومرية الأكادية حول المعبد آثار عميقة ودائمة. وكان جميع الحكام الملقبين نائب، انسي Enzi وملك لوجال Lugal بالسومرية في الألف الثالث قبل الميلاد الذين لم تتجاوز أراضيهم سوى بضعة كيلو مترات، حتى ملوك آشور الأقوياء في الألف الأول الذين حكموا في وقت ما، من ضفاف النيل إلى ضفاف قزوين، كان جميع هؤلاء العواهل الرافديون قد اعتبروا أنفسهم «نواباً» لتلك الآلهة المحلية، وهم، أي العواهل، هم الذين أسموهم ومنحوهم «الألقاب» بهدف تأمين النظام والاستقرار والازدهار، وإقامة العدل، والدفاع وتوسيع رقعة البلاد. والأهم من هذا وذاك، تأمين هذا الذي خُلقت الإنسانية من أجله: أي خدمة الآلهة وإرضاؤهم والسهر على الهدف الذي بنيت المعابد من أجله، ورمُمت وصينت وزخرفت والذي تقام من أجله الشعائر والطقوس في الأعياد الفصلية والسنوية. لقد ارتبط تاريخ بلاد الرافدين بعقائد سكانه بعمق، هؤلاء السكان الذين لا نحيط بهم إلا باستقصاء مبدئي ولغوي تطوري ومبرر في هذا المجال، بحيث تبرز

المميزات المسيطرة لهذا الدين الذي يدين بالكثير للسومريين وتدين لهم جميع الأديان اللاحقة.

3 . منابع الفكر الديني العراقي:

إن منابع الأفكار الدينية والأخلاقية للسومريين والأكاديين والعموريين والبابليين والآشوريين من نصوص عديدة ومتنوعة، هي: لوائح أسماء الآلهة والتقدمات، والأساطير والملاحم والطقوس والترنيمات والصلوات والتعزيمات ومجموعة الأمثال والوصايا. إن مصدرها الأساسي هو المحفوظات الكهنوتية الدينية التي عثر عليها في نيبور العاصمة الدينية لبلاد سومر، وكذلك من المكتبة الآشورية المقدسة، من عاصمتها نينوى. وقد سطر نحو مئتين من هذه النصوص أي ما مجموعه أكثر من ثلاثين ألف سطر باللغة السومرية، وسطر أكثر من تسعمائة نص باللغة الأكادية وترجمت إلى جميع اللهجات المتفرعة عنها كالبابلية والآشورية والمارية (نسبة إلى محفوظات ماري) والأوجاريتية الأكادية. وهناك نصوص دينية مزدوجة اللغة أي كتبت بالسومرية ويقابلها ترجمة بالآكادية. وهناك بعض النصوص البابلية والآشورية المترجمة والمقتبسة من الأصل السومري، في حين أن بقية النصوص، لا مقابل لها في الأدب السومري المعروف حتى الآن. لقد نسخت هذه الوثائق جميعها على الطين الفخاري بين 1900 حتى القرن الأخير ما قبل الميلاد، باستثناء القوائم بأسماء الملوك والآلهة ونذر يسر من الأساطير التي تعود للألف الثالث ق.م.

وتؤرخ معظم الأعمال الأدبية السومرية وبخاصة القصص الملحمية والأسطورية الكبرى في بداية الألف الثاني، ولكن، من المحتمل أنها نتاج مكتوب وموروث ومنقول شفهياً من أعماق التاريخ وما قبله. ولا شك أن تنظيم الهيكل الديني والتعبير عنه بصورة عائلات إلهية وأسطورية، قد بدأ خلال الألف الرابع قبل الميلاد، أي خلال مرحلة تمدين بلاد الرافدين السفلى، وكان هذا التنظيم من أعمال مدارس كهنوتية مختلفة، كما يشهد على ذلك تنوعها وأنسابها وقصصها الخرافية الأسطورية المتعارضة غالباً. هذا ومن المحتمل أن اتفاقاً جرى بحيث أن تختار كل مدينة سومرية أو أكادية رباً خاصاً بها، أو

رب أرباب، من بين مجموع آلهة متعددة ومشتركة في جميع بلاد الرافدين، إلا أن هذا يبقى مجرد فرضية. على آية حال، فقد كان المجتمع الديني، كما عرفناه من خلال النصوص، موزعاً في سعيه بين المجتمع الإنساني الواقعي وبين السماء وجنانها والأرض وجحيمها، وكانت جميع هذه الأماكن مسكونة بعدد وافر من الآلهة التي تمكن القدماء من التوفيق بينها دون أن يتوصلوا إلى توحيدها. وكانت هذه الآلهة مثلها مثل آلهة الإغريق،الذين جاؤوا في الزمن بعدها بكثير، آلهة ذات مظهر ومميزات وأخطاء وشهوات وانفعالات إنسانية، ولكنها كانت تتمتع بقوى خارقة فوق طبيعية، وتنعم بالخلود. ويقال!! وما أكثر ما قيل أنه كان يفيض من تلك الآلهة «إشراق» وسناء، وهالة من نور كانت تملأ الإنسان خشية واحتراماً، وكانت تلهمه هذه الشعور الدقيق عن الوصف – رعشة الإيمان! – الذي يصله بالمقدس الإلهي وهو جوهر جميع الأديان على الإطلاق.

4 . وظائف الآلهة:

إنه لمن المستحيل، من الناحية العملية، إقامة تصنيف «منطقي» للآلهة الرافدية، ذلك أن منطقنا الحديث ! يختلف عن أولئك القدماء، فقد كان يملؤون الوظائف، التي قد تبدو لنا مختلفة إن لم تكن متعارضة، فقد نجد آلهة ذات وظيفة نباتية وحربية في آن واحد! وفي كل حال، نستطيع أن نستشف من ذلك فروع وطبقات إلهية، تتعلق بوظائفها التي أنيطت بها عبر العصور وبذلك يمكن أن نلاحظ أن تصنيف «الأرواح» و«الجن» الخيرة أو الشريرة يأتي في أسفل السلم الطبقي وكذلك الأمر بالنسبة «للآلهة الشخصية» وهي نوع من الملائكة الحارسة التي ترتبط بكل فرد، ومسؤولة عن مصيره، سعادة وبؤساً نجاحاً وفشلاً، وتلعب دور الوسيط بينه وبين الآلهة الأعلى. ثم تأتي بعد ذلك مجموعة آلهة المحركة للأدوات (المنكوش، قوالب الفخار، المحاريث مثلاً) وأرباب المهن (الخزافون الحدادون، الجوهريون..) ويتبع ذلك مباشرة أرباب وآلهة الطبيعة (المياه، النباتات، الحيوانات المدجنة أو الحرة، وآلهة الخصب، والولادة والشفاء، والرعود والرياح والنار) وهي أكثر عدداً في الأصل والأكثر أهمية. ولأنها تجسد الحماسة والحيوية، والمركز الروحي، والإدارة، والقوة الماثلة والحاضرة في مظاهر الطبيعة، إنها مفاهيم

جوهرية تمثل العقلية الباكرة، التي ما تزال تعيش في مجتمعنا. ويمكن أن نضع في أعلى السلم آلهة الجحيم أرشكيجال Ereshkigal ونرجالNergal وهما ندا الآلهة المحاربة مثل نينورتاNinurta ويمكن أن يضاف في أعلى ما سبق من السلم آلهة كوكبية وبخاصة الإله القمر نانا Nanna (سين Sin بالأكادية) والإله الشمس أوتو Utu شمش Shamashبالآكادية، حيث يحدد الأول الزمن (الأشهر القمرية)، ويعلم مصير كل فرد، ولكنه غامض وسَرور في كثير من النواحي، أما الثاني الشمس فهو العدالة الكبرى ويكشف عن المجرم ويبدد الدياجير والظلام بنوره الذي يبهر الأبصار. وأخيراً وهو الأخير، يقبع على رأس، الهرم الثلاثي الكوني المؤلف من آن An وانليل Enlil وأنكي Enki.

5 . هل هناك إله واحد؟

إن آن وآنوبالآكادية هو إله السماء والإله الأكثر علوا بالمعنيين الحقيقي والمجازي.. ويكتب اسمه بإشارة ذات شكل النجم (هكذا *) وهي تعنى «سماء» أي آن و«إله» (دينجرDingir) بالسومرية وإيلو، إل بالأكادية) وتحولت إلى إله بالعربية. أما سيد جميع الآلهة الذي يفض نزاعاتهم، وقراراته لا رجعة فيها، ولكنه لا يهتم كثيراً بأمور الإنسان، ذو الجلال والاحترام والقصي في قبة السماء، وحاصل الكلام، يبقى شخصية بعيدة وغامضة دائماً، إله السومريين الأعلى والحق، أنه أنليل «سيد الفضاء» والهواء والخلاء واللانهاية والحركة وقوة الرياح، وأنفاس الحياة. وإذا كان آن ملك الآلهة، فإن أنليل ليس ملك سومر والرافدين وحسب بل ملك الأرض كلها، وهو «راعي الجماهير والثراء». هو الذي يختار العواهل والملوك، ويأمرهم بتأمين العيش والرخاء لرعيتهم، وبإرادة أنليل وحدها يستمر العالم (الذي خلقه) في الوجود، ويؤمن معاش الإنسان وبالتالي الآلهة[1]:

«بدون أنليل (الجبل العظيم)».

---

(1) حول هذه الآلهة وغيرها انظر:

J. Bottero, Le daictionnoute des Mythologies. Paris, II, 1981, P. 102 – 111.

ما من مدينة قد بنيت وما من عمارة أسستْ.
وما من أسطبل قد بني وما من راع قد أقيمْ.
وما من ملك قد نشأ وما من كاهن قد ولدْ.
والأنهار، لا تفيض بالماء.
والأسماك لا تودع بيوضها في نثر النبات.
وطيور السماء لن تبني قط أعشاشها في ربوع الأرض.
وفي السماء.
لن تمطر الغيم التائهة.
ولن ينبت زرع ولا ضرع في المروج المغرورة.
ولن ينضج القمح الغني في الحقول والمراعي.
والأشجار المزروعة، وغايات الجبال.
لن تعطي ثمارها... »[2].
(بدون أنليل).
تتوقف الحياة... (إضافة).

أما الشخصية الثالثة من ذلك الثالوث الإلهي المقدس فهو أكثر براعة وحذقاً وشهرة، إنه انكي. ورغم أن الكثيرين من العلماء يعتقدون بأن معنى اسمه هو «سيد الأرض» (كي Ki) إلا أن هذا غير مؤكد، وما يزال اللغويون يناقشون معنى الكلمة المقابل بالآكادية إياEa. على كل حال، من المؤكد أن أنكي السومري أو إيا الآكادي، مسؤول أو هو رب الحياة العذبة، والينابيع ومسيل المياه، ومن هنا تأتي أهميته في بلاد الرافدين، أما ميزته الأولى فهي الذكاء «وضخامة الأذنين» وذكرى ذلك الزمن القديم حيث كانت جميع المعارف تنتقل شفهياً. وكذلك قد يكون مبدع التقانة والعلوم والفنون وحاميها ورب السحرة. من جهة أخرى، يحتفظ أنكي بالميme، وهي كما يبدو الكلمات السرية لمفاتيح العوامل الحضارية السومرية، كما حددتها الآلهة، وهو الذي يلعب دوراً في

(2)
Hymne a Enlil: ANET3, P. 575; HCS2 PP. 111 – 114.

توزيع «المصير» على البشر، كما يطبق القوانين الصادرة عن انليل بفضل ذكائه الخارق. وقد عثر على بعض الأشعار المليئة بالحياة، وتعكس لنا صورته كمنظم للكون، وشملت بركاته وأعماله بلاد سومر، واسطبلاتها وحقولها ومدنها، وليس هذا وحسب، بل شملت بلاد ملوخاMeluhha (وادي السند). دلمون البحرين وشملت رعيان البادية السومرية المارتو MAR. TU الآموريون). ونراه أي أنكي وقد تحول إى ثور يملأ الدجلة «بالمياه اللؤلؤية» ومنه الخصب، كما نراه يوزع وظائف خاصة على عشرات من الآلهة الأصغر، ونراه أخيراً وقد أودع الإله الشمس أوتو مهمة «الكون بأسره». إنه مهندس معلم وهو الذي يقول عن نفسه:

«أنا المحاسب في السموات والأرض»..

«أنا آذان وعقل جميع البلاد»[3].

وهو الإله الأقرب من الإنسان وصديقه المفضل، وهو صاحب الفكرة الرائعة لخلق الإنسانية لتأخذ على عاتقها خدمة الآلهة. وهو الإله الذي سيكون سيد الطوفان كما سنرى.

6 . المرأة تشارك في الألوهية . الزواج الإلهي الملكي:

ويتضاعف هذا المجمع الديني المذكر بمجمع مؤنث آخر، يضم الربات من كل طبقة ومستوى، فبعضهن مجرد زوجات، وأخرى يحملن مهمات خاصة، حيث يأتي في المقدمة، عرش نينخور ساج Ninhursag الربة الأم (وتدعى أيضاً نينماخ Ninmah أو نينتا Ninta، وهناك الربة الشهيرة أنانا إشتار Ishtarالآكادية (عشتار). التي ستلعب دوراً مهماً مع معشوقها المفضل دموزDumuz تموز في الأساطير والخرافات السومرية.

إن إنانا هي «سيدة السماء»، فهي المرأة بكل معنى، صبية، جميلة، رقيقة، شفافة، غانية ولكنها خادعة، ومتقلبة وتميل إلى عنف وغضب يجعل من آلهة الرقة

---

(3)

Mythe «Enki et I'ordre du monde»: S. N. Kremer, Sumerian Mythology PP. 59 – 625 The Sumerians , PP. 172 – 183; HCS2 PP. 115 – 117.

والحب تلك، محاربة لا تقهر. وبفضل هاتين الخاصيتين ستغدو أشتار من أعظم آلهة بابل وآشور. أما دموزيDumuze «الابن الشرعي» باللغة السومرية. فيبدو أنه خلق أو ولد من تزاوج واختلاط مجموعة من الآلهة القديمة في ما قبل التاريخ، ذلك أنه، إذا كان حامياً للقطعان، فإنه يبدو في معظم الأحيان، راعياً للنبات، وهو الذي يموت ويحيا كل سنة. وهكذا فإن إرادة هذه العقيدة القديمة تهدف إلى إنتاج الحيوانوتجديد الزرع والثمار كل سنة، وذلك من خلال طقوس، حيث يتمثل هذا الإله بالملك الذي يتحد مع إنانا الممثلة بإحدى الكاهنات. وهناك شعر غرامي رائع يجمع في صورة بين العري المنزه والمشاعر الأعظم رقة ألا وهو موضوع حفلة الزواج المقدس الخرافية. بينما تقص علينا الترانيم الملكية الأكثر وضوحاً، وهي ترنيمة ادين داجان Iddin – Dagan (1974 . 1954) ثالث ملك في سلالة أسين، مواسم هذا الزواج كما يدور على الأرض، في غرفة خاصة من القصر الملكي، حيث وضع سرير من الخيزران المعطر، وقد غطي أعلاه بغطاء فاخر. وكانت الربة قد استحمت واستلقت عليه، وفاحت من الأرض رائحة زيت الأرز العطرة. ويتقدم منها الملك حيث يقول الشاعر:

«ويقترب الملك، والرأس مرفوع، من حجرها المقدس

ويقترب، مرفوع الرأس، من حضن إنانا المقدسة.

وينطرح أما . أشوم جال . أنا (وهو لقب من ألقاب دموزي) إلى جانبها، ويدغدغ أحضانها.

وعندما استلقت الربة المعلمة فوق السرير

وفي أحضان (الملك) المقدسة.

عندما استلقت أنانا الطاهرة فوق السرير.

في أحضانه المقدسة.

قد جامعته في سريره.

وقالت إلى أدين داجان:

أنت حبيبي والحق».

وبعد أن يتم القران، يفتح باب الدخول للجمهور المحمل بالتقدمات وكذلك الموسيقيين. وتقدم مائدة بهذه المناسبة:

«ويمد أما . أشمجال . أنّا يده للطعام والشراب،

والقصر في عيد، والملك في فرح،

ويمضي الجمهور يومه في الرخاء.».

لم تكن العلاقة مرهفة دائماً بين إناناودموزي، وهناك نص شهير يرينا هذه الربة في وضع القساوة والعنف. والمقصود بهذا النص أسطورة مسماة، تزول إنانا أو أشتار إلى الجحيم، التي يوجد منها نسختان بالسومرية، وبالآشورية[4].

أما في النسخة السومرية الأكثر تفصيلاً فإن إنانا تهبط، في الواقع، إلى ما يدعى «بلاد اللاعودة» حيث تتعرى من ثيابها وحليها في كل مرحلة، وذلك من أجل اقتلاع هذا الجزء من العالم لأختها ارشكيجال Ereshkigal (Persephone) السومرية. ولكنها هزمت ووصلت شفير الموت ثم تُبعث من جديد بمساعدة أنكي، ولكن لا يسمح لها بالعودة فوق الأرض، إلا إذا وعدت بإيجاد بديل عنها، وبعد تيه طويل بحثاً عن ضحية محتملة، يقع اختيارها أخيراً على زوجها الغافل.

ويؤثر دموزي من قبل الشياطين وتبكي أخته جشتيناناGeshtinanna ربة الدوالي على اختفائه. وأخيراً بعد أن تتأثر إنانا بشكوى ونياح زوجها، تقرر أن يمضي دموزي نصف السنة فوق الأرض وأخته جشتينانا النصف الآخر.

من المحتمل أن أصل نصوص طقوس الزواج المقدس من مدينة أوروك ولكن مورس في مدن أخرى، ولم يدم أكثر من عام 1794 حيث سقوط سلالة مدينة أسين Isin. وبعد هذا التاريخ، يصبح اسم دموزي تموز Tammuz لدى الآكاديين ومن

(4)

بعدهم، ويهبط إلى مستوى آلهة ثانوية، متصلة بالجحيم بشكل مبهم. ويذكر دائماً على أنه محبوب إشتار التي تتمثل بكوكب الزهرة، بينما هو ليس إلا مجموعة كواكب الجبار أو الجوزاء الصغيرة. ويصبح أحد أشهر السنة باسمة، ويبقى هكذا في اللغة العربية. ولكن قبيل الميلاد بعدة قرون، يزدهر هذا الإله من جديد، وتشأهد عبادته في شرق البحر المتوسط. ويصبح إله النبات والخضرة، وهو قريب أو يتمثل بالإله أوزيريس في مصر تقريباً. ويصبح عدن أيضاً أي adon أي «السيد» وهو أدونيس الذي يبكي الجمهور اختفاءه السنوي في القدس وجبيل وقبرص وفي روما أخيراً. ووفق رواية ملحمة أغريقية، يتنازع برسوفون Persephone وافروديت Aphrodite، وعندما يتدخل زيوس يقرر أن يقسم السنة بين هاتين الربتين. وهكذا فإن ملحمة هبوط إنانا إلى الجحيم السومرية القديمة، لم تقع في النسيان، واستطاعت أن تتجاوز بلاد الرافدين كغيرها من الملاحم وبوسائط ليست معروفة جيداً، إلى ضعاف بحر إيجه الشرقية.

7 . أساطير وملاحم الخلق:

أ . صورة الكون:

لقد تصور الرافديون الكون المحيط بهم، بالصورة نفسها التي تحيط بهم. سمُوات عليا، وسهول واسعة، ومياه كثيرة. وكانت الأرض (كي Ki) بالنسبة لهم عبارة عن قرص مسطح يعوم فوق الماء العذب (أبسوapsuabzu)، ومطوقة بمحيط عظيم محدود بحلقة من الجبال، وكان المجموع مضموماً في دائرة أو فلك، تشكل فيه السماء آن an القسم الأعلى وهي قبة صلبة ذات لون رصاصي تتحرك فيها الكواكب والنجوم، وكان القسم السفلي، غير مرئي وغامض، وهو عالم ما تحت الأرض أنه الجحيم (كور Kur). وكان هذا الفلك أو الدائرة نفسها شبه معلقة وسط «بحر أولي اصلي» أبدي وغير محدود.

ب . أصل العالم ونشأة الكون:

وقد أعطى الرافديون أجوبة عن السؤال الكبير حول أصل العالم والإنسان الذي يختلف حسب التقاليد المحلية، والعصور والجمهور الذي يهتم بذلك. وكان يوجد نظرة

شعبية بسيطة حول نشأة الكون. مثل تلك التي يقرؤوها في التعازيم أو رقية ضد «الدود» المسؤول عن ألم الأسنان. إذ أن آنو مسؤل عن خلق السماء وأن (انكي) خلق مسكنه أبسو Apsu، وفي رواية أخرى، آنو خلق أنكي أي السماء خلقت الأرض والأرض خلقت الأنهار والأنهار القنوات والقنوات المستنقعات والمستنقعات الديدان...

وفي رواية ثالثة مصدرها سيبار ومن عصر متقدم، نرى فيها مردوك الإله وقد بنى طوفاً على وجه المياه، وغطاه بالغبار، من أجل أن يصنع الأرض، وهي الطريقة التي يصنع فيها سكان مستنقعات الجنوب العراقي المعاصرون جزراً اصطناعية يقيمون فوقها أكواخهم القصبية أحياناً، أما الرواية التقليدية «الرسمية» الأفضل حبكاً تلك التي دامت وأبدت تحت أشكال أو صور مختلفة، حتى انطفاء الحضارة الرافدية وما بعد ذلك، فهي كالعادة من أصل سومري.

الحق يقال إنه لا توجد ملحمة أو نص سومري خاص بنشأة الكون، ولم يعثر حتى الآن على شيء من هذا القبيل. إلا أن تجميع المعطيات المبعثرة في عدد من النصوص قد أتاح لعالم السومريات البارز كريمر S. N. Kramer أن يركب البنية التالية: لقد تجسد البحر الأولي من قبل الربة نامو Nammu، وهو الذي خلق السماء (آن) والأرض (كي) ثم اتحدا معاً على هيئة «جبل كوني»، ثم وُلد من اتحادهما أي (آن + كي) الآلهة الكبير أي ما يسمى الأنوناكي Annunaki، وبخاصة الإله أنليل، الذي قام وفصل السماء عن الأرض، وخطف هذه الأخيرة، في حين خطف آنو السماء.

8 . الخلق البابلي:

إن فكرة أن البحر هو العامل الأولي وأن الكون قد ولد من خلال قسمته من قبل ثالث، ومن خلال انبثاق مكوناته المختلطة قد تبناها البابليون والآشوريون، وهي لب الملحمة الأكثر كمالاً وتفصيلاً مما نملكه اليوم: ألا وهي الملحمة الكونية الكبرى التي لقبت غالباً بالكمات التي هي مطلع الرواية الشعرية (كما كان يفعل الرافديون بالنسبة لجميع أعمالهم الأدبية) أي إنو ما إلش enumaelsh أي «عندما في العلا». وتتألف

من شعر مطول مكتوب على سبعة ألواح. غالباً ما نسخت في بابل وفي عهد نبوخذ نصر Nabuchidinsor الأول (1124 . 1103). ولكن لا يوجد لدينا سوى النسخ التي تؤرخ في الألف الأول. وقد لعب الإله مردوك الدور الأول فيها، وحل محله الإله آشور في النسخة الآشورية، ولعل مردوك نفسه حل محل انليل فاطر الكون المحتمل والذي لا يزال فرضياً في نسخة بابلية قديمة. ويبدو أن المؤلف استلهم الرواية من مشهد اعتيادي في جنوب الرافدين، الذي يمكن تأمله اليوم بأن نقف فجر ذات يوم صيفي على الشاطئ العراقي من الخليج عند مصب شط العرب، حيث تتكاثف غيمة سميكة تغطي الأفق، وهناك مياه حلوة تتسرب من الأرض اسفنجية تختلط بمياه النهر والبحر، ويمتد في البحر مسافة طويلة. لا يمكن أن نرى سوى لمعات على صفحات الماء. فالبحر والنهر والأرض والسماء قد اختلطت في سديم سائل. هكذا يبدأ مطلع الرواية، في لحظة لم يسم فيها شيء أي لم يخلق بعد شيء، ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يخلق إلا ويحمل اسماً بالنسبة للرافدين، وكان الماء العذب (Apsu) آبسو والبحر تياماتTiamat يشكلان مادة واحدة.

«انو ما الش لانبو شمامو enumaelish la nabushamamu

عندما في الأعالي، السماء لم تكن قد سميت بعد.

ولم يكن للأرض في الأسفل اسماً.

إن الخالقة تياماتTiamat هي التي أبدعتها.

وقد خلطت جميع مياهها مرة واحدة.

ولم يكن هناك مراعي ولم ينبت القصب.

ولم يكن قد ظهر أي إله.

ولم يسم أسم ويظهر مصير.

وكان هنالك آلهة أخرى قد خلقت».

وتظهر من خلال ذلك السديم الغامض، مناطق الطمي التي تخرج شيئاً فشيئاً من الغيم، والشمس آخذة بالارتفاع شاقة طريقاً أو خطأ يفرق بين مياه البحر ومياه الأرض العذبة.

وهكذا يظهر أوائل الآلهة من هذا السديم الكوني. وقد تشكل الالهان المسميان لخمو Lahmu ولاخامو Lahamu من الطمي الحاصل، وتبعهما أنشار Anshar وكيشار Kishar اللذان شكلا آفاق السماء والأرض. واتحد آنشاروكيشار لينجبا آنو الذي أبدع بدره إيا Ea. وخلقت آلهة أخرى فيما يلي ولكن لا تذكر الملحمة شيئاً عنهم، سوى أنهم هائجون مائجون «مزعجون للإلهة تيامات»، ولهذا تقرر هذه الأخيرة مع آبسو وبمساعدة مومو Mummu أن تقضي عليهم، إلا أن إيا صديق الآلهة والإنسان يبطل هذه المؤامرة. ويندفع ضد مومو ويشله أما آبسو فينام، ويقوم بتقيده والاستيلاء على عرشه ثم يقتله. وينسحب مومو إلى مقامه الذي تأسس من لجج آبسو ومياهه العميقة، ويخلف مع زوجته دمكينا Damkina ابناً يدعى مردوك Marduk الذي وهُب صفات الهبة خارقة.

كان قوامه جليلاً ونظره يعمي.
لا يمكن تصور أبعاده العجيبة.
من المستحيل ومن الصعب تصوره.
كان له أربع عيون وأربع آذان.
عندما يحرك شفاه، تشب النار..
وصارت قوة سمعه مضاعفة أربع مرات..
وعيونه ترى كل شيء في كل لحظة.
ممجد بين الآلهة وذو قوام عظيم..
وأعضاء عملاقة..

إلا أن تيامات بقيت حية وحرة ولكنها هاجت وماجت لموت آبسو، فتعلن الحرب ضد الآلهة. فخلقت حية عملاقة «بأسنان حادة» وأحناك مريعة وجسم مليئ بالسم بدل الدم. وخلقت التنين الكاسر، والأسود المتوحشة، وكلاب مرغية. وشياطين عاصفة،

ونصبت أحد أبنائها المدعو كنجو على رأس هذه القوات الكابوس. وذهلت الآلهة بعد أن علمت من إيا ما سيحدث. وقام أنشار و «ضرب مؤخرته وعض شفتيه» وأعلن أنه يجب دحر تيامات. واقترب إيا ثم آنو من العدو. إلا أنهما يتراجعان مرتعبين ورفض بقية الآلهة النزول إلى المعركة، جميعهم إلا مردوك الذي ألح عليه والده، فقبل ولكن بشرط أن يجتمع المجلس الاستشاري والإلهي وأن يطلب منه بإجلال أن يعهد إليه «بتقرير المصير وإعلانه» وأن أوامره لا تعدل ولا تراجع. ولم يستطع الإلهة إلا الرضوخ. وعقب إحدى المآدب «حيث شربوا كثيرا من البيرة القوية والجعة والسلسلة» كانوا ثملين قليلاً «مطفأين وفرحين». فيقدمون الصولجان إلى مردوك، والعرش وإشارات الملكية «على جميع الكون».

وقد اختار مردوك أسلحته، فكانت القوس، والبرق والشكبة والرياح والزوابع. ولبس الدرع المخيف وتزين بتاج «يشع رعباً» وصعد فوق عرب العاصفة، وذهب ينازل تيامات في معركة فريدة. ويلقي بمصيدته فوق قواتها وعندما تحاول فتح فمها للصراخ، يدفع الرياح في أحشائها. وعندها تهرب قوات هذا الغول كنجو Kingu ويقع في الأسر فإن مردوك يفتت جثة تيامات «كسمكة مجففة»، ويذهب نصفها ليغطي السماء والآخر ليحمل الأرض. هذا هو خالق الأرض كما يقدم نفسه. ويحدد طريق الشمس والقمر والنجوم في القبة الكونية الجديدة، ويكدس فوق رأس تيامات صدرها، ويفجر من عيونها المقلوعة الدجلة والفرات، ومن «لعابها» يخلق الثلج والمطر. وبعد أن أتم ذلك وزع الأدوار على كل إله وعفى عن أولئك الذين ثاروا ضده واستوى على عرشه وقرر أن «يبدع عملاً رائعاً» ويتحدث عن مشروعه لـ إيا قائلاً:

«أريد أن أصنع قنوات دموية وهيكلاً عظيمً.

وأجبل كائناً إنسانياً ويكون اسمه إنسان.

أريد أن أخلق هذا الكائن الإنساني، هذا الإنسان..

أن يقوم على خدمة الآلهة ويعيشوا بسلام».

وطبقاً لنصيحة إيا، يساق كنجو مقيداً، ويحاكم، تثبت عليه تهمة تحريك الثورة، فيذبح:

«ومن دمه خلق إيا الإنسان..

ومن فرض عليه خدمة الآلهة...».

ومن أجل مكافأة مردوك على مآثره، تبدأ الآلهة ببناء معبده في بابل المدعو إساجيلا Esagila. ثم يجتمعون في إحدى المآدب و«يعلنون أسماءه الخمسين»، وهي صفاته الخمسون التي تمجد انتصاراته.

كانت الغاية من هذا الشعر العظيم هو الغناء ومديح انتصارات مردوك، وخلقه العالم، وتمجيد مكانته في قمة المجمع الديني. ولكن هناك مجموعة من المعاني خلف الموضوع التي ترفع من شأن هذا المديح. وهكذا فقد تم التعبير عن صراع الأجيال . وهو ظاهرة جديد . من خلال آلهة شابة مضطربة وهائجة وتصخب بهدوء الآلهة العجوز، ولكنهم أي تلك الآلهة الشابة ستصبح ناشطة ومباركة. ولم يعد خلق العالم مجرد وصف لمشهد مجاني لأحد الآلهة الأقوياء، بل كمعركة ضخمة وانتصار للنظام على الحالة السديمية غير المتطورة، وانتصار الخير على الشر. ويمتلأ هذا الشعر بالكثير من العنف ولعل ذلك يعكس اضطرابات العصر. وترينا معظم ملاحم الخلق أن الإنسان الأول قد ولد من زوجين مقدسين أو جُبل من الصلصال من قبل إله أو ربة. وقد أكدت ملحمتان بابليتان كبيرتان على وجود دم إلهي في عملية الخلق. إذ لا نعلم من كان ذلك الإله المدعو ويه We الذي يذبح . وفق ملحمة أتراخاسيس (التي سنتحدث عنها في ملحمة الطوفان . من أجل أن تخلط الربة مامي Mami دمها بالتراب الغضاري. إلا أن كنجو في ملحمة أنوما إليش هو إله شرير وثائر ومجرم وهو وحده الذي أعطي دمه للإنسان كي يخلق، كما لو أن الشاعر الكاهن أراد أن يشير إلى طبيعة الإنسان الإلهية والشيطانية القوية والضعيفة. وكما يقول الحكماء السومريون في أحد الأشعار الذي يدعى الإنسان وربه: «لم تخلف أم طفلاً قط وقُدر له أن يبقى بلا خطيئة».

. الولادة والحياة . الموت والنهاية . المصير والحظ:

آ . مكان الجمهور في الدين:

إن هذه الروائع الأسطورية الأخاذة، يجب أن لا تنسينا العامل الأساسي في الديانة العراقية القديمة، ألا وهو العلاقات بين الفرد وآلهته والأثر الحاسم للألوهية على الحياة اليومية. وما من شك أن هذه العلاقات تختلف عندما يتعلق الأمر بالملوك أو كبار المسؤولين أو الكهنة أو الناس العاديين، ولكن يجب ألا ننسى أن الفرد العادي والمتوسط وفقراء الناس لم يعيشوا ذلك الاتصال وتلك العلاقة مع الآلهة إلا بصورة فاترة وليست حميمية. ولم يكن اتصالها بالآلهة إلا من خلال الوسطاء من رجال الدين أو كمشاهدين في بعض الأعياد. إلا أن بعض الأسماء الدينية التي نصادفها في النصوص هي ليست في الحقيقة سوى صرخات من الأعماق تعبر عن ألم كبير، مثل إيلي ويداكو – iIi Wedaku «الهي أني وحيد»، أرماني إيلي «الهي ارحمني» أدلاّل . سين «ساغني لسين». وليست معاني هذه الأسماء سوى نداء واعتراف أو فرح يشهد على رجائهم الرحمة لهم ولتابعيهم. ويوجد كثير من البراهين الكتابية والأثرية التي تفصح عن هذا السلم الإيماني. إلا أنه يبدو من الصعب أن ندرك إذا كانت الارستقراطية ورجال الدين هم وحدهم الذين أمسكوا بامتياز التفكير الديني، وأن عامة الناس في ذلك الزمن البعيد، قد كان يتوجب عليها الشعور بأنها محاطة بقوى عاتية خيرة أو شريرة تمارس تأثيراً عميقاً في أنشطتها ولذا كان لابد من تجسيدها أو طلب المساعدة من أولئك المتخصصين. هذا ونعلم أنه كان يوجد إلى جانب المعابد في المدن الكبيرة مقامات وزوايا شعبية موزعة في الأرياف مكرسة لتقديس وعبادة آلهة صغيرة متواضعة، وقريبة من قلوب النشطاء، وتستطيع باعتقادهم أن تفك العقد وتجلب الطمأنينة أو الحظ. من أمثال تلك الآلهة الربة جولا Gula راعية الولادة والحوامل. واندورساج Endursag حامية الرحالة. حيث يقدم المتعبدون بعض تقدماتهم المتواضعة من الطحين أو التمر. ورغم عدم توافر كثير من المعلومات أو النصوص لتي تتحدث صراحة عن الموضوع، إلا أن هناك ما يدعو للاعتقاد أن الفلاحين والرعاة الرافديين قد صلوا لآلهة أخرى مثل أشنان ربة الحبوب

وشوموقان Shumuqan إله الحيوان في مكان عملهم نفسه في الحقول. وقد رأينا كيف أن فلاحاً سومرياً يطلب من الربة نينكليم Ninkilim أن تبعد الحيوانات والطيور الضارة عن حقله؟ نستطيع القول بصورة عامة أن وضع سكان العراق تجاه آلهتهم هو وضع الخادم تجاه معلمه، ويعبر عن هذه العلاقة بالخشية والخشوع والاحترام والإعجاب والثقة، وإذا كان خدمة الآلهة العادية وإتمام مراسم وطقوس الاحتفال بالأعياد الموسمية والسنوية من حصة الكهنة، فإن الجميع، من الحاكم الأعلى حتى أبسط فرد مكلفون بطاعة الآلهة، وإتباع تعاليمهم بدقة، واحترام كثير من القواعد والمحرمات التي تحدد نهجهم اليومي. إن الاعتداء على هذه الأعراف والقوانين لا يعد جنوناً وحسب بل خطيئة وكل خطيئة، حتى وإن كانت غير مقصودة (مثل لمس شرير أو الجلوس على كرسي مسحور أو لمس امرأة بيدين قذرتين) يعاقب مرتكبها بالخراب والمرض أو الموت، وهي عقوبة مقرة وصادرة عن الآلهة الغاضبة، وتنفذ من قبل واحد من كثير من الشياطين المتربصين في الظل، والجاهزين أبداً للامساك بالضحية. وعلى الرغم من هذا، فإنه لمن الخطأ عد الديانة العراقية مجرد شكليات دقيقة ومضنية، بخاصة عندما يكون هناك عدد من الأدعية والصلوات التي يرددها الكهنة بناء على حاجتهم، أو طلب المتعبدين الذين يحتاجون إلى نجدة إلهية، حيث يعبر كل ذلك عن ورع وتقى وانفعال حقيقي فهذه إحدى الصلوات تقول:

توجهت إليك، وجئت إليك، وبحثت عنك..

يا إلهي.. وركعت على قدميك، فاقبل..

تضرعي..»[5].

و«نقول في موضع آخر:

---

(5)

J. M. Seuxdars J. Briend (Ed.). La Creation du Mond et de I'homme d' après les texts du Proche – Orient, Paris, 1981, PP. 7 – 40: M. J. Seux. Hymnes et Prieres PP. 13 – 14. M. J. Seux, Priere au «dieuxPersonel». PP. 205 – 206.

أيتها النجوم الرقيقة، أيتها النجوم العطوفة على الأرض..
الناس أيتها النجوم الرقيقة، أيتها النجوم العطوفة على
الأرض.. الناس المحتشدون كثر..
المضطهدون.. المضطهدون، الذين لا حول ولا قوة.. لا حول
ولا قوة.. الذين يتبعونك كل يوم دون توقف
لقد ناجيتك.. وتوجهت إليك...».

ب . التوسل الابتهال:

لم تكن الأضاحي، والمناولات والمديح كل ما يطلبه الآلهة من الإنسان. بل كانوا يفضلون أولاً أولئك الذين يعيشون حياة مثالية سواء أكانوا زوجات صالحات أم أهلاً صالحين أم أطفالاً صالحين أم جيراناً صالحين أم مواطنين صالحين، وأولئك الذين يحضون على الفضيلة التي يحيون فيها: يحضون على المحبة والحق والاستقامة، والإخلاص، والعدل، واحترام القانون والنظام، وكان الأب ينصح ابنه، والمعلم تلميذه أن «سبح بحمد ربك كل يوم» أما نصائح الحكماء فهي:

«من دبر لك الألم.. رد له الخير بالمقابل،
ومن كان شريراً معك، ابق عادلاً معه..
قم بأعمال النجدة والمساعدة..

ولا تحتقر من هم في محنة، ولا تدس أو تتأمر بل قل كلاماً جميلاً، ولا تكن في موقع الشرير، ولا تقل إلا كلاماً جميلاً»[6].

وبالمقابل، فإن الآلهة الطيبة والحنونة، تمنح الإنسانية المساعدة والحماية؟ وتؤمن للفرد وضعاً اجتماعياً مشرفاً ومزدهراً، وتمنح الأطفال الصحة والحياة المديدة، من الأشياء التي تتمناها في الحياة، وعرف أسلافنا الرافديون الإجابة عنها ببساطة، سمحت

(6)
W. Glambert, Balylonian Wisdom Literature Oxford, 1960 PP. 96 – 107 . R. Labat, Religion P. 364 – 349.

لهم أن يمارسوا حياتهم بفرح ويقبلوا بالوجود كما هو، كان يبدو من خلال أدبهم أنهم كانوا يرغبون بعيش عمر مديد وطويل، إلا أنهم أقتنعوا أن آلهتهم قد حددت لكل منهم موعداً لموته، وأنه على كل فرد كما يقولون أن «يذهب إلى مصيره» وأمام هذا الموت المحتم، لابد من التسليم بقدر الله، وتسليم الروح:

«إن الآلهة وحدها التي تعيش تحت الشمس إلى الأبد.

أما الإنسان فأيامه معدودة، ومهما كان عمله..

فهو ليس إلا هباءً»[7].

ماذا بعد الموت، وتلك الآلاف من القبور وما تضمه من أموات، ماذا حدث لهم وأين هم؟

إن معظمهم إن لم يكن جميع قبور الرافدين القدماء السومريين وجميع أسلافهم، قد زودوا قبورهم بقليل أو كثير من الأدوات والمواعين اللازمة للعيش في أحضان ظلام القبور!.

ج . حياة ما بعد الموت:

إن وجود هذه الأدوات يشهد على وجود عقيدة كونية دينية بوجود حياة أخرى ما بعد الموت. فقد وضعوا إلى جانب الميت النمارق والكؤوس، وحاولوا دائماً تزويدها بما يلزم من طعام وصيانتها وحمايتها وكان هدف العائلة اسعاد الميت بعد موته. لا بل تقديسه واحترامه، وإلا فإن روحه أو ظله يعود ويتحول فوق الأرض ويزعج الأحياء. أما

(7)
Gilgamesh , Vesion Btabylonianneancienne III IV, 618: ANET3. P. 79: R. Labat,Religions P. 164. Maureen Gallery Kovacs, The Epic of Gilgamesh California 1989 PP. 19 – 20.

المصير النهائي لهذه «الأرواح» أو الأموات فهو غير واضح من خلال بعض النصوص التي بين أيدينا كما أنها متناقضة أحياناً[8].

فقد كانوا يعتقدون بوجود «بلاد اللاعودة» أو العالم السفلي الكبير (أرالوarallu)، وهو فضاء كبير تحت الأرض يقع باتجاه الغرب غالباً، ويضم مدينة واسعة محاطة بسبعة أسوار. ويرتفع في وسط هذه «المدينة الكبيرة» قصر مبني من حجر اللازورد، تعترشه الإلهة ارشكيجال وشقيقتها إنانا (إشتار) وزوجها نرجال إله الحرب والأوبئة، وهو محاط بعدد من الآلهة والحرس الخاص. ومن أجل الوصول إلى هذه المدينة، فإن على الميت أن يتعرى ويركض في صحراء مخيفة ثم، وكما هي الرواية في هادس الإغريقية Hades يقطع نهراً فوق مركب لـ «مراكبي الجحيم». وعندما يصل إلى أبواب الأسوار، يخضع إلى محاكمة كما يبدو، أو بالأحرى، فإنه موضع قرار يتخذ بحقه، ويتعلق بقبوله في عالم الأموات، أو أن عليه أن يذهب بصحبة أموات آخرين، حيث يعيشون حياة كئيبة وبائسة.

إنه عالم حزين وصامت ومظلم في واقع الأمر:

«حيث الغبار طعامهم وخبزهم وكذلك الصلصال،

حيث لا يرون النور، ويبقون في الدياجير،

يرتدون ثياباً، كالعصافير، ثياباً من الريش،

ويغطي الغبار الباب والحاجز.. »[9].

---

(8)

J. Bottero «La mythologie de la mort enMesopotomieancienne» dans B. Alster (Ed.) Death in Mesopotamia Copenhagen 1980, PP.25 – 52.

(9) أشعار مترجمة عن:

ANET3, P. 107: R. Labat, Religons , P. 259.

وقد لا يستطيع سوى الملوك أن يحظوا بقبر أقل كآبة، وذلك بفضل كنوزهم التي يضعوها برفقتهم وتحت إمرة آلهة الجحيم..![10].

د : المرض وكيف الشفاء؟

هذا ولم يكن الموت وحده الشغل الشاغل للرافدين، فقد كان لهم نصيب من الأمراض يقابله شفاء وعذاب؟. وكانوا يتساءلون أحياناً، كيف يحدث هذا ويفترض أن آلهة عادلة وعطوفة تحكم العالم؟ كيف يمكن للشر أن يتفوق على الخير؟ بالتأكيد، يمكن أن يعزى هذا الشر إلى بعض الأخطاء أو «الخطيئة» اللاإرادية ! وتغدو الآلهة عندها في وضع غير مفهوم؟. وهناك شعر بابلي رائع عنوانه، (لإدلول بل نمقي Iudlulbelnemeqi) لأُسَبِّحْنَ رب الحكمة، والذي يسمى لدى المتخصصين «المعاناة الحقة» حيث يصور لنا بتعابير حادة المشاعر المريرة لرجل، سبق وكان نبيلاً وغنياً ونظيفاً، ومن ثم يجد نفسه فجأة منهاراً ومحتقراً من كل شيء، وزيادة على لذلك ابتلي بالأمراض الفظيعة والغامضة. وتنتهي مأساة هذا الرجل بين يدي الإله مردوك الذي تأخذه الرحمة به، فيعيد له الصحة والسعادة، ولكن أيوب البابلي هذا قد مر بأوقات صعبة شك فيها بالحكمة الإلهية حيث يقول:

«من ذا الذي يعلم ما يريد الآلهة في السماء؟
من يستطيع أن يفهم ما يدمدم به الآلهة في الجحيم؟
كيف يستطيع سكان الأرض أن يعملوا بالمشروع الإلهي؟
يكون الواحد منهم مبتهجاً بالأمس ومنهاراً اليوم!
أو نجده عابساً فجأة، وفي لحظة أخرى نجده متحمساً.
وبلمح البصر يغني فرحاً،
وما أن تخطو خطوة حتى ينوح كالنواح!

---

(10)

S. N. Kramer, «The death of Ur – Nammu» JCS 21, 1967, P. 104 – 122.

وانتقاله إلى العالم الآخر في

هذا هو من سأقف أمامه وأتساءل دون
أن أفهم معناه العميق!»[11].

وهكذا يمكن للإنسان الرافدي أن يكون محروماً من الأمل بالجنة، ومهدداً بجحيم في العالم الآخر، وخاضعاً لنزوات آلهة ذوات عزائم لا تقهر، ومعرض لخطر ارتكاب الخطيئة والمعاصي في كل لحظة، مما يستجر غضبهم عليه، وإذا ما حاول بكل الوسائل، أن يعرف شيئاً عن المستقبل فقد يواجه فألا مشؤوماً. ولديه موضوعات أخرى، هي مصدر قلق وخوف ألا وهي الحروب والأوبئة، والأخطار الملازمة للطبيعة المحيطة به.

د . السحر والطقوس والأعياد لإغراء الآلهة:

إن طبيعة المناخ في بلاد الرافدين عرضة لتقلبات مفاجئة وغير متوقعة، إذ قد يكون الطقس باراً جداً وجافاً جداً في الشتاء، كما يمكن أن تخمد رياح الجنوب الرطبة المناسبة للنبات. وقد تلم عاصفة رعدية أو رملية، ويمكن للطوفان أن يدمر المحاصيل ويجرف جزءاً من القطعان خلال ساعات! هكذا يجد العراقي القديم نفسه أمام مظاهر طبيعية قوية (فوق طبيعية) لأنها تفوق طاقته، يعجز عن تفادي نتائجها المدمرة، فيمتلأ قلبه بالقلق، ويشعر أن نظام الأشياء، كما تعود عليها ووطدتها الآلهة، هي الآن في خطر محدق! ولهذا لابد من إعادة النظر بالأحكام الإلهية التي تقررت لحظة الخلق. وبصورة دورية، وبخاصة في بداية السنة، وقبل ذلك الصيف المشرقي المحرق، حيث تبدو الطبيعة محترقة بفعل الشمس اللاهبة، وحيث يبدو المستقبل ثقيلاً ومريباً. وبدا للإنسان آنذاك أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله في تلك اللحظات الحرجة، هو

---

(11)الأسطر 36 . 42 ترجمة J. Botte'ro

Ludlalbelnemequi, II, Moىument du centre, Thomas Moore L'Arbesle, 1977, P. 15.

مشكلة الألم في بلاد الرافدين.

إغراء الآلهة باستصدار أحكام جديدة من خلال القيام بأعمال السحر، ودفعها إلى التعهد بتأمين ولادة الزرع والنبات من جديد، وعيش الحيوانات والكائنات الإنسانية، وديمومة المناخ المناسب، وغياب الكوارث الطبيعية، وأن يعم الخير في البلاد وبين الأفراد. هذا ما كان، في الواقع، يهدف إليه الزواج المقدس بالمعنى العميق، وما سيهدف إليه فيما بعد، تلك الطقوس المأساوية التي تدور كل ربيع، وفي مدن متعددة، وبخاصة في بابل، حيث يشعر الجميع، من الفرد البسيط إلى الملك، بالخطر والذنب فيعمدون إلى التطهر والإصلاح. وفي ختام هذا الأكيتو Akitu أو عيد رأس السنة (أول الربيع) الذي ستقرأون عنه فيما يلي من فصول هذا الكتاب، يجتمع مجلس الآلهة حول مردودك «ويعلنون عن المصائر»وهو التعبير الذي ينمو ويرفع من شأن الإنسان، ويحدد الطبيعة الباطنية، والوجود والصيرورة لكل شيء. ومن خلال ذلك. يستطيع الملك أن يسترد اعتباره وعرشه، والتاجر تجارته، والفنان والحرفي مكانتهما، والرعيان قطعانهم والفلاح أرضه، ويشعر الجميع بالطمأنينة خلال سنة مقبلة على الأقل، عند ذلك يمكن أن يقال أن آلهة سومر «قد أدارت وجهاً عطوفاً» نحو البلاد بنهريها[12].

والخلاصة:

إن ديانة السومريين قد خلقت من خلال الإحتكاك مع الطبيعة. وهي أساس الفكر الماورائي القائم على فكرة جهل المجهول في العالم غير المنظور. وخلقوا وظائف لجميع آلهة الكون أي السماء والأرض والبحار. وأعطوها أسماء تدل على تلك الوظيفة فـ: آن تعنى السماء وانليل تعني هواء وإنكي تعني الأرض وهكذا.

وقدم السومريون لهذه الآلهة القرابين، وبطريقة ذكية، حيث اخترعوا آلهة أخرى مساعدة من الطبيعة مذكرة وأنثوية.

---

(12)

A . L. Oppenheim Ancient Mesopatmia, PP. 201 – 206.
T. Jacobsen; H. Frankfort «The Intellectual Adventure of Ancient Man Chicago, 1977, 2e d; G. Roux chap. 24.

وقد عبر الكهنة عن هذه الرؤية الكونية بأشعار روائية أسطورية، صورت وظائف الآلهة. وحكت قصة الخلق، والموت.

وأخيراً قدم الكهنة سبل التوبة ومواجهة الخطيئة التي تولد مع الفرد! فاخترعوا الأضاحي، والأعياد واحتفالاتها. ولكنهم أنتجوا قادة وملوكاً، وكهاناً سُموا نواباً وممثلين للإله وكان لهم بطولات وملاحكم ما تزال باقية آثارها في الآداب والديانات اللاحقة وهو ما سنعالجه في الفصل اللاحق.